شعر خليل حاوي

صوت جيل بأكمله ...

بقلم سلمى الخضراء الجيوسي

ديوان خليل حاوي « نهر الرماد » ليس اول نتاجه ، وان كان اول مجموعة شعر يطبعها ، ويلقي عليها اسم قصيدة واحدة . ان نتاجه الاول يختلف عن هذا اختلافا كبيرا ـ فلا بد ان خليلا ، يوم نظم « البحار والدرويش » اولى قصائد المجموعة ، كان قد عانى صراعا فكريا شديدا لعله ناتج عن تأثره بما درس من فلسفة من جهة ، وبما عانى كانسان من تجارب في نطاق محيطنا وحياتنا المعاصرة من جهة اخرى . وقد جاء شعره في هذه المجموعة مازجا بين الفكرة العميقة والعاطفة القوية ـ وكان تزاوج الفكر والعواطف فيه طبيعيا ومنسجما .

وقد حاول خليل ان يصبغ تجاربه في البداءة على الاقل ، بلون الانسانية العالمية ، فتاه في زورقه بين الغرب والشرق بين العلم والتصوف، بين المادية الصرف والروحانية السلبية، في قصيدة «البحار والدرويش» ثم بعد ذلك لم يستطع ان يتخلص من بيئتنا وحياتنا العربية المعاصرة . فكل تجربة مر بها كانت تحمل ظلال عالمنا واتعابنا وهمومنا . انه معني بالدرجة الاولى ، بما في حياة المدينة العربية ، والعاصمة العربية بصورة خاصة ، من مباذل ومظالم ، وقد يكون اعتناؤه هذا عن غير وعي منه . ان الناقد يستطيع ان يلمس نزوع الشاعر الى الانطلاق من البيئة الخاصة، ورغبته ان يعبر عن فرحه العام بيقظة الشرق كله ـ فالجيل الصاعد ، عابر الجسر في الفجر ، ان هو الا ابناء الشرق جميعا النافرون « من كهوف الشرق، من مستنقع الشرق الى الشرق الجديد » (الجسر) ، ولكن تجاربه وامثلته مستمدة مباشرة من بيئته ، وحقده وغضبه واحزانه كلها منبثقة عنها . وادواؤها هي التي تقلقه وتثيره لانها تعترض حياته كفرد . ان مأساة الفرد في بلادنا ، التي غالبا ما تنبثق عن فساد النظام الحياتي فيها، هي المصدر الاول لانفعالاته وتعبيره .

وخليل ليس شاعر وطنية مباشرة ، ولكنه شاعر بارز من تلك القبضة من شعرائنا المعاصرين الذين تحدثوا عن حياة الجيل العربي المعاصر باخلاص واحترام ابتدأ سلبيا وانتهى بايمان ايجابي واضح . انه صوت مجلجل لجيلنا وشعوره طبيعي في المثقفين منا على الاخص، لان نفسيته على بساطتها الطبيعية ، لا تخلو من التعقدات التي يحدثها تعمق الثقافة في النفس، وتقززه ، وهذا الغثيان الدائم ، وهذا الحقد الفكري والعاطفي عجيب ان لا يشعره الانسان العربي اليوم ، ونحن ما زلنا لم نعرف بعد انطلاق الحياة ولا طمأنينتها ولا اتزانها .

ولهذا فاني ارى تراجعه الى زوايا الحياة في بلادنا بعد سياحته التائهة في « البحار والدرويش » بين الشرق والغرب ، بين العلم والتصوف الديني ، امرا طبيعيا مرحبا به ، فهو ينتقل في « ليالي بيروت » حالا الى التحدث عن مأساتنا نحن ، وعن ضياعنا ، واذا كان هناك نمط وجودي واضح في قصيدة « البحار والدرويش » ينبيء بأن الشاعر كان غارقا في دراسة الفلسفات والمذاهب الفكرية في الغرب والشرق ، فان «ليالي بيروت» تعبير صادق عن حالة الشباب العربي المثقف في اسوأ أزماته ـ وكل شبابنا تقريبا يمرون بأزمات قاسية مرة او مرات في حياتهم . وتعبيره هنا وفي القصائد التي تليها كقصيدة « في جوف الحوت » ، و «سدوم» عن اليأس والاخفاق اراه مجرد حالة تأزم نفسي قوي لا اعتناقا محددا لفلسفة تحكم بحتمية اخفاق الانسان وانهزامه النهائي امام قوى القدر.

ولو ارادنا ان نفهم هذا منه لما اعتبر كل المجموعة قصيدة واحدة تبتدىء بهذا اليأس السلبي وتتدرج الى الايمان الايجابي القوي بانطلاق الانسان، والانسان العربي هنا بالذات ، من جمود القيم الى انبعاث الخصب وتدفقه، ومن ضفة الموت ، عبر جسر من ضحايا جيل بأكمله ، الى ضفة الحياة الحرة المنطلقة .

والفرد في مجتمعنا كثيرا ما يعرف الخيبة ، وكثيرا ما يسعى ويبني فتفشل جهوده ، ومن هنا يتولد اليأس والشعور بتفاهة الحياة وبالحقد والغضب ـ ولكن هذه المشاعر التي لا تخلو من تناقض لا تعترض شاعرنا العربي اجمالا ، الا لفترات معينة . وهذا ما حصل مع خليل حاوي. وقد كان من الطبيعي ، بل ومن المحتوم ، ان يجد حلا لهذا التأزم وخلاصا من هذه السلبية ، ولو لم يجده لكان ذلك شذوذا ـ فان حضارتنا قد بدأت تصعد السلم من جديد ، وليس من الطبيعي ان يعبر شاعر عن روح الانسان الصاعد باليأس المطبق والاشمئزاز الشامل والكراهية وكل المشاعر السلبية التي عبر عنها اليوت ، ربيب حضارة بدأت تأكل نفسها ، او المعري الذي عاش في نهاية سلم الحضارة العربية .

ولعل البياتي يشبه خليلا ، الى حد ما ، بتدرجه من السلبية الى شيء من التفاؤل والايمان . ان القارىء يحسن عملا لو راجع ما كتبه الدكتور احسان عباس في كتابه النقدي الممتاز عن البياتي (1) ـ ومنه سيدرك ان الحل الذي يجده البياتي في ديوان « اباريق مهشمة » حلا غير مكتمل لمأساة الانسان العربي المعاصر ، فان « النهر المتدفق » ، نهر البشرية النعسة المستيقظة التي هبت تركض نحو « الباب المضاء » قد بلغته محمومة وتوقفت عن السير ، ولكن خليلا والحمد لله قد آمن ان الجيل الصاعد سوف يعبر الجسر ولو كان عبوره سيتم على حساب حياتنا نحن وتضحياتنا . ولهذا السبب نفسه يدهشني بلند الحيدري دائما ـ ليس هناك بصيص من امل او اشراقة واحدة في كل شعره ولذلك فقد قلت انه لا بد ان يكون له نفسية خاصة يعيش ضمن اطارها (2) وازيد على

(1) عبد الوهاب البياتي والشعر العراقي الحديث .

(2) الاداب عدد آب سنة ١٩٥٦ « قرأت العدد الماضي : الشعر »

ذلك فاقول ان بلند لا بد ان يتخلص منها ، تلقائيا ، لان طبيعة حياتنا العربية العاصرة ، على احتدامها وتوترها واندفاعاتها العصبية ، وعلى ما فيها من ظلم واجحاف وحمق ، تنطوي على خير كثير وعلى جد وتصميم بعضه واع ، وبعضه خاضع خضوعا حتميا لسنة الحياة ولطبيعة البعث في الامم .

وهكذا ففي « ليالي بيروت » نتعرف حالا على انفسنا ونتلمس ضياعنا ورغبتنا في الهروب من متاعبنا بصورة مهولة مجسمة .

« في ليالي الضيق والحرمان ،
والريح المدوي في متاهات الدروب
من يقينا سأم الصحراء ؟ »
ثم
« في هنيهات يهون الكفر فيها
كيف ننجو من غوايات الذنوب ؟ »
وها هي الحياة الليلية في بيروت تدعوه للنسيان والهرب
« ان في بيروت دنيا
غير دنيا الكدح والموت الرتيب
ان فيها حانة مسحورة ، خمرا ، سريرا من طيوب
للحيارى في متاهات الدروب » .

وفي الحقيقة ان الشعر الهروبي يكثر في ادبنا المعاصر . عبدالوهاب البياتي يحلم بالرحيل

« ولم العويل ؟
غدا الرحيل
عن هذه الارض الخبيثة ، ، لعنة العيش الذليل
حلت بجيل بعد جيل » ((القرية الملعونة))((اباريق مهشمة))
وهذا بلند الحيدري ، يتمنى الانفلات
« الى اين ؟ ويحك لا تسالي
فرجلاي مثلك تستفهمان ...
الى اين ؟ يا للصدى ، اسكتي
فليس وراء انفلاتي مكان))((الى اين))((اغاني المدينة الميتة وقصائد اخرى))
وها هي فدوى طوقان تخاطب نفسها
أأنكرت في الارض هول الفناء وظلم القضاء وجور الليالي
تراك افتقدت جمال العدالة فيها فهمت بأفق الخيال »
ثم :
« هو الوهم عالمك الشاعري » (« هروب » « وحدي مع الايام »)
ونازك الملائكة
الام نجوب سحيق البلاد ، ـ يعيث السراب بنا ، ـ تناولنا وهدة لوهاد ، ويخدعنا المنحنى
ونسمع من جنبات المسالك ذات مساء
صدى هامسا في الدجى اننا جبناء
نخاف الاصيل ـ
ونرحل لا رغبة في الرحيل
ولكن لنهرب من ذاتنا ، من صراع طويل))(((الهاربون))((قرارة الموجة))
ولي من قصيدة « عودة من النبع الحالم »
« كان حلم وهروب يائس وتلاوين كذوب
فلماذا غرنا الوهم واغرتنا السرابات اللعوب
نحن قد ولدتنا امنا بالامس احرارا كراما اقوياء
نعبد الواجب ، نهوى الخصب فينا والعطاء
فلماذا يعترينا خدر في روحنا وتفاوينا الينابيع السروب
ولماذا ننتشي بالحلم لو كنا نفوسا سعداء » .

*

وهكذا فبعد كل جولاته وبعد ان اكتشف في تطوافه الوهمي انه لا وجود للمثالية في العالم ، الا في خيال الانسان ، وبعد ان جذبته تفاعلات حياته العربية المتوترة ، هرب نحو اللذة ، وغطس في الطين ، « نعش السكارى » ترينا اياه منغمسا انغماسا يكرهه ولكن لا يحسن التخلص منه، في احضان اللذة . هذه القصيدة فورة عصبية نفثت سمومها على هذه المرأة المسكينة التي اتخذها رمزا لترديه هو ، وان كان صوّر مأساتها ، عرضا ، تصويرا محزنا . انه في الحقيقة غير معني بها ، بل معني بنفسه وبمأساته هو : امسه المليت بكل عواطفه ونجواه وصفائه ، وهـــذا السأم واليأس الذي يرين على حياته اليوم :

« اتغنين لنا الحب ونجواه ولينه
وصفاء الامس في ارض السكينه
أتغنين ، وهل ابقى لنا ليل المدينه
اضلعا تشتاق ما كان وتستشف حنينه »

وفي « جحيم بارد » استطراد ملح للحديث عن نفسه، لتكملة اطار الصراع النفسي الذي يعانيه . لقد انتشل هذه المرأة من الازقة واراد ان يسلي بها سأمه وهمومه

« ونعمنا بعض ليلات تلاها
هذيان ، سأم ، رعب سكوت
الرؤى السوداء ، ربي صرعته
خلفته باردا مرا مقيت »

لقد نعم ليلات ثم عادت اليه الرؤى السوداء ـ الصراع والهذيان والسأم ـ اما المرأة فقد وجدت هناك لتتحدث عنه بالدرجة الاولى وان كان هذا يجرها لان تتحدث عن نفسها ـ وهي ، كالمرأة في « نعش السكارى » رمز لترديه الشاعر من جهة ولما في حياة المدينة من فساد وارهاق ومآس . ان خليلا غير معني ابدا بشخصية اي من المرأتين بل بما ترمزان اليه .

اما قصيدة « بلا عنوان » فانها في غير مكانها من المجموعة واعتقد ان مكانها قبل « عودة الى سدوم » . ولعله وضعها ليظهر لنا بوضوح اكثر موقفه من المرأة واستمراره على نفس الحياة . انها تتحدث عن علاقة نشأت بينه وبين امرأة اوروبية في بلاد الانجليز ، من اولئك الفتيات المغامرات اللواتي يتقاطرن الى انجلترا من اوروبا بحثا عن المغامرة ، او عن زوج ـ وفي القصيدة احتقار ضمني لها ولحياتها غير المجدية

« ... عنواني ؟ ترى اين اكون
ربما عدت الى الكهل الحزين
عله يغفر لي بعد سنين
سوف يأتيني بطفل أتبناه
واحيا زوجة اما نبيله ! »

انه يحتقر هذه الحياة ، بما رسخ في نفسه من تربيته العربية مـــن احتقار لها ـ امرأة تقضي شبابها مغامرة ثم تعود الى زوجها فيغفر لها ـ هذا الزوج الذي يجعله خليل حريصا على ارضائها ، فان كان زواجهما عقيما لا يخصب فسوف يأتي لها بطفل تتبناه . وسوف اتحدث عن تعلق خليل بفكرة الخصب واحتقاره للعقم في مكان آخر .

المرأة التي صورها في « بلا عنوان » هي من نفس نوع المرأة في كل من « نعش السكارى » و « جحيم بارد » وهي تؤكد استقراره على حياته الاولى التي تنشد السلوى لتنسى مأساتها ، والمشكلة عند خليل اكثر تعقدا مما يظن الانسان لاول وهلة ، في نفسه احتقار عميق لحياة التردي، وللجنس غير المعاني ، ولكنه يحيا هذه الحياة مترعا كأسه فيها ، تاركا شبابه يذوي لتعتصره دوامتها العصبية ، فكأن حياته اصبحت مرهونة بها. انه :

« غريق ميت يطفو على دوامة حرى ويعميه الدوار » .

ثم :

رد لي يا صبح وجهي المستعار

رد لي ، لا ، اي وجه ؟

وجحيمي في دمي ، كيف الفرار ؟ »

ويستمر في دورانه حول حالته النفسية في القصائد التي تليها في « جوف الحوت » و « ضحكات الصغار » وفي « سدوم » ـ وان كنا في « ضحكات الصغار » نلمس اول بادرة من بوادر شوقه الى الحياة المتجردة وان كان الياس يعود فيغرق الامل والايمان في « المجوس في اوروبا » يتجدد بحثه عن الحقيقة ليجد الفن مختفيا رعبا منها في المغارة . والحقيقة ان « المجوس في اوروبا » غريبة الجو ، فما الذي يريد ان يمجده الشاعر في حياة هؤلاء الوجوديين اللائذين في كهوف العالم السفلي في ارض الحضارة ؟ أهو اخلاصهم للغرائز ـ ام نفورهم من رياء الحياة الحضارية ، انه بلا شك يريد ان يهاجم حياتنا نحن اليوم خلال تمجيده لحياة هؤلاء ـ ان يهاجم عجزنا عن ان نخلق فكرا اصيلا بوجوه وعقول مستعارة . وان يهاجم عجزنا عن ان نخلق فكرا اصيلا وفنا مبتكرا . والحقيقة ان خليلا قاس علينا ، لانه يتجاهل هذه الجهود التي بذلها وما زال يبذلها جيلنا في سبيل تحقيق وجود ارقى له ، ويتجاهل العوامل التي تقف في سبيل اندفاعنا وانتصارنا السريع ، ويتجاهل الاسباب القاسية المزمنة التي قولبتنا بقالب لا يعجبه .

وبعد كل الصخب والهدير يبتدىء حنينه الى البعث . قصيدة «بعد الجليد » ايمان بطيء ولكن قاطع بان البعث سيتم لا محالة . كان من الحكمة ان يكون تحوله رومانطيقي النزعة ، فيغريه كرهه لحياة المدينة العربية بمناحيها الاجتماعية والسياسية التي تثير غثيانه ، بأن ينزع الى حياة تناقضها ـ الى حياة القرى او الى الطبيعة والغاب كما فعل جبران (١) . ولكنه لا يفعل شيئا من هذا ، بل انه لا يكاد يذكر لنا شيئا عن حنينه الى ان يعيش هو حياة احلى وانقى واهدأ من الحياة التي يحياها ـ فكأن في نفسه ايمانا مطلقا بحرية مصيره هو ومصيرنا نحن معه . انه يسكب كل حبه وامله مبشرا ببعث يتوج به رؤوس اولادنا ـ وما نحن الا الجسر لهم يعبرون عليه خفافا من احمالنا الثقال .

لقد احب خليل هذا الجيل الصاعد حبا شديدا ـ كل اشراقات المحبة والامل والايمان تلتف حول هذا الجيل وحده ـ وليس في ديوانه عاطفة حب لغيره . انك تكاد تلمس هذا الحب بيديك . تلاميذه ، واولاد اصدقائه هم محور عاطفته الرقيقة التي يسكبها بارق اللفظ وألطفه . وهذه العاطفة الدافئة تقف شامخة امام عواطف الكره والاشمئزاز التي يسكبها على رؤوس الكبار ، بكلماته الحادة المتوترة .

(١) راجع كتاب « الشعر العربي في المهجر » للدكتور احسان عباس والدكتور محمد يوسف نجم .

والحقيقة ان هذه الحدة وهذا التوتر ليسا غريبين عنا . فالفكر في بلدنا ليس هادئا ولا نقيا ولا جميلا ، بل هو قلق ، منقسم ، متوتر ، وحياتنا ، رغم بوادر النقاهة ما زالت تشكو من الاعتلال والمرض هنا وهناك ـ ولهذا فقد حمل شعر خليل كل انكسارات المرض والانحراف والاهتراء الروحي جنبا الى جنب مع اقوى اندفاعات الامل والاشراق والعطاء . ولهذا ايضا حق لشعره ان يضرب اوتارا حساسة في نفسية جيلنا .

*

وقد افاد خليل حاوي في شعره من دراسته للفلسفة الشرقية والغربية، ومن اطلاعه الواسع على الادبين الانجليزي والفرنسي الى جانب الادب العربي، ومن التوراة ، ومن مجموعة اساطير التاريخ القديم . ولن يكون عندي المجال الكافي في هذا المقال للتحدث عن تأثير كل مناحي هذه الثقافة في شعره بل اكتفي بالتحدث عن استعماله للاسطورة ، فهو يستعمل الاسطورة المسيحية جنبا الى جنب مع الاسطورة الفينيقية ، جاعلا من التاريخ وحدة زمنية لا تتجزأ . لقد اهتمت بعض مدارس النقد الغربي بالاساطير الشعبية ودعت النقاد لدراستها وقررت انه « لا بد ان يرتبط الشعر بالاسطورة فهي الرمز الذي يتجسد البشرية (١) . وقد تأثر عدد من شعرائنا المعاصرين بهذه الدعوة ، فاغترفوا من ثروة الاساطير العالمية برموزها التي يعرفها الادب وعاد عدد كبير منهم ، مسلمون ومسيحيون ، الى التوراة واستمدوا من قصصها وسيما محنة الصليب وفكرة الفداء، مادة غزيرة لشعرهم وللرمز عن صراع الانسان المعاصر وعذابه وفدائه . ولم يكن صعبا جدا ان تهضم العقلية العربية هذا الرمز لان الاسطورة المسيحية عاشت في ديارنا جنبا الى جنب مع حكايات التاريخ الاسلامي ولو كان ذلك على نطاق ضيق . ولقد كان لنبوغ عدد كبير من الشعراء المسيحيين في المهجر ولبنان ما جعل استيحاء الفكرة المسيحية في الشعر طبيعيا فمهد هذا لاستعمال الاسطورة مجردة عن ايحاءاتها الدينية .

ومن البديهي ، ان استعمال الاسطورة في الشعر هو تقرب من الشاعر نحو المشاركة الشعبية ، فكل شعب له في اساطيره وقصصه قوة موحدة وتراث يتناقله الابناء عن الاباء ، والشعر الذي يستوحي الاساطير انما يستوحي شيئا من التراث الشعبي الحي في نفوس الامة وفي هذا يضاعف اغراءه ، ويقرب من نفسية الشعب . ولهذا فان من يقرأ شعر الشاعر الارلندي بيتس يستطيع ان يرى كيف عاد هذا الشاعر ، يوم نشد الوحدة مع وطنه ، الى ثروة الاساطير في ميثولوجية ارلندة .

فهل يمكننا على هذا الضوء ان نعتبر العودة الى الاساطير الفينيقية والبابلية تقربا من نفسية الشعب العربي واتحادا معه ؟ وهل تعيش هذه الاساطير في تراثنا ام انها ماتت واندثرت ؟ ان ما استطيع التأكد منه ان هذه الاساطير الوثنية لا تعني شيئا للاغلبية الساحقة من الامة العربية وانها مجهولة لديها بشكلها التاريخي الذي يقتبسه الشعر المعاصر . لقد وضع الفتح العربي حدا فاصلا بين تاريخ سوريا والعراق القديم وبين التاريخ الذي تلا الفتح العربي . وقد تسنى للعرب ذلك لان سكان سوريا والعراق كانوا ساميين يتكلمون لغات سامية شديدة الشبه بالعربية ، فانصهروا والعرب ، الذين نزحوا بكثرة الى الهلال الخصيب ، في بوتقة حضارة

(١) كتاب فن الشعر للدكتور احسان عباس ص ٢٠١

واحدة لا يمكن تقسيمها وفصلها بشكل من الاشكال (١). وتدريجيا (٢) بدأت الاساطير الوطنية تختفي باستيلاء العادات العربية الاسلامية (٣) على نفوس الشعب . ولهذا فاني ارى ان العودة لهذه الاساطير ليس اتصالا بالشعب العربي لانها بعيدة كل البعد عن نفسيته ـ فلا يمكن ان تكون الغاية منها الا الرمز . والرمز الذي ترمز اليه اسطورة تموز جميل لانه رمز للحياة بعد الموت والخصب بعد العقم ـ وقد كان خليل موفقا ، من الناحية الرمزية ، في هذا التشبيه ، غير ان الرمز لسوء الحظ ، لا بد ان يخسر شيئا كثيرا من ايحائيته لاقتران هذه الاساطير الفينيقية البابلية في ادبنا المعاصر بحركة لا عروبية ترمز الى احياء التراث السوري البابلي باسمائه وآلهته المندثرة واساطيره ، فلا بد من ان تخدش النفوس ولا تهدف سوى الرمز (٤) .

.. وانه لا يسعنا الا ان نشعر بالاسف من انا نعيش في زمن مضطرب قد تتصرف فيه النوازع بالاحكام تصرفا حتميا . ولكن الحقيقة هي هذه ، انعرض لذكرها فقط اذ حاول تقدير تذوق مجموع القراء في الوقت الاني لهذا الجزء من الشعر الذي اعتمد على هذه الاسطورة . وانه من الانصاف ان يلاحظ القاريء كيف استعمل خليل اسطورة العنقاء ، وهي عربية ، وتعرض لذكر الخضر ، بل كيف ضم في شعره هذا التاريخ الطويل العريض لبلاده

رب ماذا هل تعود المعجزات ؟
بدوي ضرب القيصر بالفرس
وطفل ناصري وحفاة
روضوا الوحش بروما .. .»

---

(١) اما الفرس ، فعلى نبوغ عدد كبير منهم باللغة العربية وعلى ان قبائل عربية كثيرة هاجرت واستوطنت بلاد فارس ، فان اللغة الفارسية ظلت تعيش حتى اننا نقرأ ان كثيرا من العرب النازحين الى فارس والمتزوجين من فارسيات استعجمت السنتهم . ولم يكن ذلك غريبا فاللغة الفارسية لغة آرية بعيدة اصلا كل البعد عن العربية ، وما زالت ، رغم وجود نسبة كبيرة جدا من الكلمات العربية فيها ، شديدة البعد عن اللغة العربية . ولهذا فان الفرس لم يستطيعوا ان ينصهروا بالعرب انصهارا كليا .

(٢) يذكر ابن النديم في الفهرست ، تحت اسم « حران » ، ان اهالي حران كانوا ما يزالون يحتفلون في القرن العاشر بصيد الاله تموز (يسميه تاوز) ويبكون عليه » كيف قتله ربه وطحن عظامه في الرحا ثم ذراها في الريح ، ولا تأكل النساء شيئا مطحونا في رحا بل يأكلن حنطة مبلولة الخ » ..

(٣) يرى بعض المستشرقين ان المناحات التي تقيمها طوائف الشيعة في ذكرى كربلاء السنوية ، ان هي الا استمرار محول للمناحات التي كان يقيمها السوريون لادونيس والبابليون لتموز (تموز وادونيس) هما نفس الاله الذي كان رمزا عند هذه الشعوب للخصب ، ولحياة الطبيعة في الربيع بعد موتها في الشتاء) .

(٤) قصيدتي « تموز » المنشورة في العدد الرابع من مجلة « شعر » لا علاقة لها بالاسطورة المذكورة ولا ترمز لشيء مطلقا . انها شخصية محض فشهر تموز له اهمية خاصة عندي لما عرفت فيه من افراح واحزان شخصية وعائلية .

ولم يكن غريبا ان يفيد خليل من اسطورة تموز لان الفكرة القوية في شعره تتمركز في الجنس المعافى ، في الخصب المعطي . وفي شعره تفريق واضح بين الحب الحلال المخصب وبين الحب المحرم العقيم، فالاول مصدر الخصب والبركة والمعافاة والثاني مصدر الاجداب والمرض والموت . وفكرة الخصب والانسال وفكرة العقم ، تاخذ طريقها الى تعابيره بشكل رمزي

« اترى يولد من حبي لاطفالي وحبي للحياة
فارس ...»

ابدا حيث يذكر الحب يذكر الخصب وحيث يفقد الحب يستولي العقم والجمود على الحياة . ها هو يهاجم المجتمع الذي يزوج بناته زواجا تجاريا

« بنتهم تستمريء الناب الذي يفرز في البضن الحرير
وليكن ناب خصي ان يكن ناب امير ! »

انه يحتقر هذا النوع من التزاوج ويعتبره حراما وعقما ، انه يريد للرجل ان يكون قويا وافر الرجولة وللمرأة ان تكون طاهرة نقية

« بي حنين موجع نار تدوي ....
لشباب موسم العافية الخضراء نيسان التلال
لصبايا قلبهن من كنوز الشمس من ثلج الجبال »
هذا وجه انسان عربي لم يغير منه تطوافه في العالم شيئا .

وليس من الممكن الحديث عن الشعر في « نهر الرماد » دون التعرض بالبحث لوزن الرمل الذي استعمله خليل في كل القصائد . ان من الشعراء المعاصرين من يتعمد واعيا انتقاء وزن خاص للقصيدة لشعوره بوجود اتساق بين النغمة والمضمون ، ومنهم من يتعمد النظم على اغلب اوزان الشعر العربي ومنهم من يجذبه وزن يستأثر به لمدة من الزمن الى ان يحصل عنده اشباع نغمي فينتقل الى وزن آخر . واعتقد ان خليلا قد وقع ، واعيا او غير واع ، تحت تأثير هذا الوزن ـ الرمل ـ مدة طويلة .

في بحثي عن مزايا هذا الوزن استعنت بكتاب الدكتور عبد الله الطيب « المرشد الى فهم اشعار العرب وصناعتها » ، وهو كتاب فذ بالغ القيمة. اقول هذا رغم اني لم استطع ان اتفق مع المؤلف الكريم حول جميع ما جاء فيه ، ولكن عدم اتفاقي معه مسألة تذوق فقط ، والكتاب بلا شك يثير النشاط الذهني ويحرك العقل للتفكير والعمل .

يعدد الدكتور الطيب للرمل الميزات التالية : يقول ان له موسيقى خفيفة رشيقة منسابة وفيه رقة وعذوبة وان في نغمه قابلية للاسترسال لاطراده وان انغامه بسيطة وترتيبه بينة الجرس متكررة ولذلك فانها تزاحم المعنى في ذهن السامع فكأن الكلام والوزن منفصلان وكأن للوزن استقلالا عن الكلمات وان للرمل رنة يصحبها نوع من الملنخوليا وهي هذا العذاب العاطفي الحزين في غير ما كآبه او وجع او فجيعة . والدكتور الطيب يعتقد ان هذه الرنة الحزينة متأصلة في نغمة تجعله صالحا جدا للاغراض الترنمية وللتأمل الحزين ، وتجعله ينبو عن الصلابة والجد وما الى ذلك .

وانني اتفق والاستاذ على اكثر ما ذكر من ميزات البحر الرمل غير انني لا اوافقه على وجود رنة مصحوبة بالمنخوليا اصلا في بحر الرمل ، والدكتور الطيب ، مع انه بنى حكمه على الشعر الكلاسيكي فقد تغافل عن الاغراض اللطيفة والملح التي استعمل عمر ابن ابي ربيعة الرمل

في التعبير عنها . قصيدة عمر « ليت هندا » ، و « طال ليلى وتعناني الطرب » « وهيج القلب مغان وصير » وسواها ، كلها شعر قصصي رشيق مرح لطيف الروح . وقد تغافل كذلك عن قصيدة مهيار الديلمي في الفخر « اعجبت بي بين نادي قومها » . فانها متدفقة تميل الى التفخيم ولا اثر للحزن العاطفي بها . اما الموشحات الاندلسية فقد نظم شيء كثير منها على هذا الوزن ، وهي اشعار وضعت للغناء والترنم لا تخلو اجمالا من المرح .

انني اعتقد ان اهم ما في الرمل من ميزات هو طواعيته الشديدة . فهذا الوزن يمكنه ان يتقلب بين ايدي الشعراء في الف لون وقالب ، محتفظا دائما برشاقة هي فيه اصلا ، ولكن لابسا ثوب الحزن مرة والغضب مرة اخرى والمرح مرة ثالثة . وفي الرمل الكلاسيكي بساطة ورتابة بينة الجرس ، كما ذكر الدكتور الطيب ، ولهذا فقد استعمل الرمل في الموشحات لعذوبته ولهذه البساطة الرتيبة التي توافق التلحين وتناسب الغناء ـ ولعل الموشحات من اكثر شعرنا العربي رتابة حيث يغرق المعنى وتتضاءل قيمته في رتابة الوزن . ثم ان في الرمل هذه القابلية للاسترسال لاطراده وتلاحقه ، ولهذا فاني ارى ، عكس ما يرى الدكتور الطيب ، ان هذا الاطراد المتلاحق يلائم جدا كل شعر يعبر عن عاطفة فائرة كالغضب او الفخر كما يلائم ايضا الشعر القصصي لانه يؤمن انسيابية القصة .

ووزن الرمل اذا لم يكبح جماحه خليق بان يجر الشاعر نحو تدفقيه يغرق المعنى في انغامها او نحو رتابة ان صلحت للغناء فانها لا ترتفع بالشعر الى النمط العالي ، ولست اعتبر شعر الموشحات ارتقاء بالشعر العربي وان كنت اعتبره تجديدا من نوع معين ولاسباب معينة ، فان تنويع القافية لحق نظاما هندسيا صارما ، واشد صرامة من الشكل الكلاسيكي ، فخرج الشعر مصطنعا متكلفا ، ولذلك فانه لم يستطيع ان يضمن لنفسه قوة الاستمرار كشعر عبر القرون ، بل توقف الشعراء عن نظمه بزوال حياة المرح والغناء التي اوجدته .

وشعر الرمل ، اذا نوعت انغامه وتفاعيله لمقاومة الرتابة ، واذا عرف الشاعر من جهة اخرى ان يكبح تدفقيته المتهورة استطاع ان يعبر عن مشاعر الحزن والاغراض التأملية بكل نجاح . واعتقد ان الشعر المعاصر الذي ينوع التفاعيل ويتلاعب بها ، يمكنه ان يطوع هذا الوزن لاغراض لم يستطعها الشعر الكلاسيكي المعتمد على توازن النغم لان في هذا التوازن في بحر الرمل يدخل عنصر الرتابة حالا ، الا فيما ندر .

والشعر المعاصر يكثر من استعمال هذا الوزن والقصائد الناجحة فيه كثيرة . ولعله من الطريف ان اذكر هنا ان للدكتور الطيب في ديوانه « اصداء النيل » قصيدة على هذا الوزن هي ابدع ما في ديوانه من شعر . ففيها خرج على توازن الشعر الكلاسيكي لينظم قصيدة عن حادث طريف حدث له في انجلترا . هذه القصيدة هي « الكأس التي تحطمت » فليراجعها القاريء في ديوانه الكلاسيكي النمط وليرى كيف استطاع الشاعر ان يجمع فيها ، وبنجاح كلي ، مشاعر الغضب والثورة والتوتر والمرح والدعة ، واليأس والحزن ، وهي فوق هذا تروي حادثة حصلت متتابعة ، اي ان الدكتور الطيب ، كي يصف هذه الحادثة ، اختار الوزن الاول من اوزان الشعر العربي ، الذي يستطيع الانسان ان يطوعه ليضم كل هذه المعاني بنجاح .

فماذا عن شعر خليل ؟

تمتاز شخصية خليل في نهر الرماد بصفتين بارزتين كما ذكرت ، شخصية الانسان المفكر ، وشخصية الانسان الغاضب . وبحر الرمل كما قلت يمكن ان يطوع لكل من الغرضين ، للتعبير عن الغضب ، وللتأمل ، ولكن ليس في الوقت ذاته . فالغضب يحتاج الى التدفق ، وبحر الرمل ، اذا ترك ولم يكبح استطاع ان يؤمن هذا التدفق وان يجيء متهدرا صاخبا ليعبر عن اشد مشاعر الغضب في الانسان ، ولكن هذا التدفق والهدير الذي يصحبه خليق عندئذ ان يصرف القاريء عن الافكار العميقة التي يريد الشاعر ان يبدعها في شعره وان يستأثر من القاريء بعاطفته اكثر . وهذا ما حصل ، الى حد ما ، في « نهر الرماد » . الموسيقى في شعر خليل مندفعة متدفقة ، انها معبرة وقوية ولكنها لا تتنوع ولا ترتفع وتنخفض اجمالا ، بل تشعر القاريء وكأنه واقف قرب شلال عارم . البيت يتلو البيت ، يركض في أعقابه ، يشد على عنق البيت الذي يليه بعنف وتصرم مرهقين . لا بد هنا من التنويه بان بعض قصائد « نهر الرماد » كقصيدة « بلا عنوان » اقل تهدرا واكثر رقة ونعومة ، كما انني وجدت قصيدته الاخيرة المنشورة في الاداب (ك . ثاني ١٩٥٨) « وجوه السندباد » تظهره وقد استطاع ان يشد على ناصية البحر ويتملكه ويتحكم فيه بصرامة .

وقد زاد في صخب النغم قسوة الكلمات التي يستعملها . ان الكراهية خشنة ، ما في ذلك من ريب ، وهو اذ يعبر عن الكراهية والتقزز والغثيان لا بد أن يعتمد على كلمات تفي بالغرض ، ولكني اعتقد انه بالغ في ذلك . وليست الحياة ، ولا حتى حياتنا ، مزدحمة الى هذا الحد ، فهناك دائما فترات من الاستجمام والهدوء فيها ، مهما كان الصراع عنيفا حيويا مستعجلا . كما وانه من المؤكد ان الفن ينفر من الخشونة ويوائمه اكثر الاحساس المصقول .

وبعد ، فان ناقوس ثورة يدق لنا في شعر خليل . انه منا والينا ، حنينه ، وافكاره وتعابيره وغضبه وزمجرته وكل ما يحب ويكره . جرب ان يتناول العالم في كفه ، ان يتحدث عن الانسانية كلها ، ولكن حياتنا نحن غلبته وجذبته الى تيارها العنيف ، فعاف الشمول وعاد الينا يعانق مصائبنا ويتولى من ظلمنا وأساء الى جيلنا كله بالمسخ . فمسخ تاجرنا المرائي ، ومسخ حاكمنا الغاصب ، ومسخ الطائفية التي تفرقنا في « خفاشه المذهب » والرجعية التي تنثر غبارها في عيوننا ، وكل الادواء السرطانية التي تنهش قلب مجتمعنا ، النفاق ، حب المال ، العقم السياسي ، التلون والهرولة بين معسكري الشرق والغرب ، وموت الاحساس القومي ، وقلة جدوى الخير .

« كل جيل كنت ابنيه من السمر الطوال
لا مكانا له ، لا بيتا وخبزا » !

وقد استطاع ، فوق ذلك ، أن يجمع شتات التجارب المختلفة ببراعة وان يعبر خلال تجاربه الخاصة ، دون ان يفض منها ، عن حقائق عامة، وان يجعل منها رموزا تعنينا بقدر ما تعنيه . ومرحبا به شاعرا لجيلنا يشق طريقه بوعي وثبات خلال الزحام .

لندن — **سلمى الخضراء الجيوسي**

صدر حديثا :

بودلير

الكتاب الرابع من مجموعة اعلام الشعر
ترجمة : الدكتور فؤاد ايوب
الناشر : دار بيروت للطباعة والنشر